

العلماء ورثة الأنبياء

قال الله تعالى: { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } قال تعالى: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ }.

والله سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم، وجعل ذلك كالشهادة منهم، فقال: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }.

وقال تعالى: { وَفُرْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا } [الإسراء: ١٠٦ - ١٠٨].

وهذا شرفٌ عظيمٌ لأهل العلم.

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ }

وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ اسْتَشْهَدَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى بَطْلَانِ
قَوْلِ الْكُفَّارِ، فَقَالَ تَعَالَى: { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا
غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ
لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ }.

وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ أَهْلُ خَشْيَتِهِ، بَلْ خَصَّهِمْ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ بِذَلِكَ،
فَقَالَ تَعَالَى: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ }
[فاطر: ٢٨].

وهذا حصرٌ لخشيته في أولي العلم.

وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم
- يقول: «من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين». متفق عليه.

وهذا يدلُّ على أنَّ من لم يفقهه في دينه لم يُرد به خيراً، كما أنَّ من
أراد به خيراً ففقهه في دينه، ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيراً، عن أبي
أمامة الباهليِّ قال: ذُكِرَ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلان،
أحدهما عابد، والآخرُ عالم، فقال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -:
«فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم». رواه أبو داود.

وقال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحَوْتُ فِي بَحْرِهِ،

ليصلُّون على معلِّم الناس الخير». رواه الترمذي.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من سلك طريقًا يتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يُورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر». رواه أبو داود.

وعن أبي الدرداء، قال: سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «من غدا لعلمٍ يتعلَّمه فتح الله له به طريقًا إلى الجنة، وفرشت له الملائكة أكنافها، وصلت عليه ملائكة السماء وحيتان البحر، وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، والعلماء ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يُورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم؛ فمن أخذ بالعلم أخذ بحظٍّ وافر، وموت العالم مصيبة لا تُجبر، وتُلْمة لا تُسدُّ، ونجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم». رواه ابن عبد البر.

وقال أبو هريرة: «لأنَّ أفقه ساعة أحبُّ إليَّ من أن أُحيي ليلةً أصلبها حتى أصبح، والفقير أشدُّ على الشيطان من ألف عابد، ولكلِّ شيءٍ دِعامه، ودِعامه الدِّين الفقه».

قال كعبُ الأخبار: «طالبُ العلم كالغادي الرّائح في سبيل الله عز وجل».

وجاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم: «إذا جاء الموتُ طالبَ العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد».

وقال سفيان بن عيينة: «من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل».

وقال أبو الدرداء: «من رأى الغدوّ والرّواح إلى العلم ليس بجهدٍ فقد نقصَ عقله ورأيه»

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «خيركم من تعلّم القرآن وعلمه». رواه البخاري.

وتعلّم القرآن وتعليمه يتناولُ تعلّم حروفه وتعليمها، وتعلّم معانيه وتعليمها، وهو أشرفُ قسَمي تعلّمه وتعليمه.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «تعلّموا العلم؛ فإنّ تعلّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يُحسِنه صدقة، وبذله لأهله قربة، به يُعرفُ الله ويُعبَد، وبه يُوحَد، وبه يُعرفُ الحلالُ من الحرام، وتُوصَلُ الأرحام، وهو الأنيسُ في الوحدة، والصاحبُ في الخلوة، والدليلُ على السّراء، والمعينُ على الضّراء، والوزيرُ عند الأخلَاء، والقريبُ عند الغرباء، ومنارُ سبيل الجنة، يرفعُ الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادةً وسادةً يقتدى بهم، أدلّةً في الخير تُقتصُّ آثارهم،

وَتُرْمَقُ أفعالهم، وترغبُ الملائكةُ في حُلَّتْهم، وبأجنتها تمسحهم، يستغفرُ لهم كلُّ رطبٍ ويابسٍ، حتى حيتانُ البحرِ وهوائمه، وسباعُ البرِّ وأنعامه، والسماءُ ونجومها، والعلمُ حياةُ القلوبِ من العمى، ونورٌ للأبصارِ من الظلمِ، وقوةٌ للأبدانِ من الضعفِ، يبلغُ به العبدُ منازلَ الأبرارِ والدرجاتِ العلى، التفكيرُ فيه يُعدّلُ بالصيام، ومدارستهُ بالقيام، وهو إمامٌ للعمل، والعملُ تابعُهُ، يُلهِمُه السعداءُ، ويحرّمُه الأشقياءُ».

قال ابن مسعود: «عليكم بالعلم قبل أن يُرْفَعَ، ورفعُه هلاكُ العلماء، فالذي نفسي بيده ليودنَّ رجالٌ قُتِلوا في سبيلِ الله شهداءَ أن يبعثهم اللهُ علماء؛ لما يرون من كرامتهم، وإنَّ أحدًا لم يولد عالمًا، وإنما العلمُ بالتعلم».

*** **

الخطبة الثانية

لما كان أهل العلم بهذه المنزلة؛ فقد جاء الشرع بتكريمهم، والحضِّ على توقيرهم؛ فعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: ((ليس منّا من لم يجلَّ كبيرنا، ويرحمَ صغيرنا، ويعرفَ لعالمنا حقَّه)). رواه الشاشي.

توقير العلم والعلماء من إجلال الله - تعالى - وتعظيم شريعته، وامتنال أمره؛ عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((إن من إجلال الله إكرامَ ذي

الشبية المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط)). رواه أبو داود.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يدينون الله - سبحانه - ويتقربون إليه باحترام العلماء الهداة، بلا غلو ولا جفاء؛ وتعظيم العلماء وتقديرهم من تعظيم شعائر الله؛ قال تعالى ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

والشعيرة - كما قال العلماء - : كلُّ ما أذن وأشعر الله بفضله وتعظيمه، والعلماء - بلا ريب - يدخلون دخولاً أولياً فيما أذن الله وأشعر الله بفضله وتعظيمه؛ بدلالة النصوص الكريمة السالفة الإيراد. وعلى هذا؛ فالنيل من العلماء وإيذاؤهم يُعدُّ إعراضاً أو تقصيراً في تعظيم شعيرة من شعائر الله.

قال بعض العلماء: أعراض العلماء على حفرة من حفر جهنم. ومن هنا وجب أن يوفيهم الناس حَقَّهم من التعظيم والتقدير والإجلال، وحفظ الحرمات، وما يوجد من بعض الناس في بعض المجالس أو المنتديات، أو بعض وسائل الإعلام من انتقاصٍ أو ازدراء لأهل العلم؛ بسبب خلافهم، أو قولهم الحق والصدق به - يجب إنكاره والردُّ على قائله ونصحه؛ لأن الوقوع في العلماء إسقاطٌ لهم، وحرمانٌ للناس من الاستفادة من علمهم، وحينئذٍ يتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فيفتون بغير علم

يفضلون؛ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد؛ ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا)). رواه أحمد.

إن توقير العلماء أدعى إلى توقير علمهم الذي يحملونه، وأقرب إلى أن يحرصوا على بذله للناس؛ فإن التوقير والأدب والتلطف، يستدر بها العطف والود، كما أن في ازدرائهم وإهانتهم خطراً على المجتمع بكتماهم العلم أو عجزهم عن إبلاغه، أو استهانة الناس بهذا العلم الذي يحملونه؛ ولذا كانت سنة الله - تعالى - فيمن اعتدى على أهل العلم والصلاح أن يفضحه الله ويكبته.

عباد الله: إن الجناية على العلماء خرقٌ في الدين.

قال ابن المبارك - رحمه الله تعالى - : **مَنْ اسْتَخَفَّ بِالْعُلَمَاءِ ذَهَبَتْ آخِرَتُهُ، وَمَنْ اسْتَخَفَّ بِالْأَمْرَاءِ ذَهَبَتْ دُنْيَاهُ، وَمَنْ اسْتَخَفَّ بِالْإِخْوَانِ ذَهَبَتْ مَرُوءَتُهُ.**

وقال الإمام أحمد بن الأذرعي: **الوقية في أهل العلم - ولا سيما أكابرهم - من كبائر الذنوب. والطاعنون في العلماء لا يضرون إلا أنفسهم، وهم مفسدون في الأرض.**

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

الطاعنون في العلماء عرضةً لحرب الله تعالى، القائل في الحديث القدسي:
(مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)). رواه البخاري.

والعلماء هم من أولياء الله تعالى، روى الخطيب البغدادي عن أبي حنيفة
والشافعي - رحمهما الله - أنهما قالوا: إن لم تكن الفقهاء أولياء الله،
فليس لله وليٌّ.

قال الشافعي: الفقهاء العاملون، الطاعنون في العلماء مُعَرَّضُونَ لاستجابة
دعوة العالم المظلوم عليهم؛ فدعوة المظلوم - ولو كان فاسقًا - ليس بينها
وبين الله حجاب.

فكيف بدعوة وليّ الله الذي قال فيه: ((ولئن سألتني لأعطينه، ولئن
استعاذني لأعيذنه)؟!)